عبط ... عبط ... !

بقلم : محمود تيمور

أستمعى الى يا أمى ، ولا تقاطعينى .

أصغى الى ابنك ، وهو يروى لك طرفا من حياته .

لعلك تبتسمين فى عجب ، وتقولين :

وهل أجهل أنا من تاريخ حيـــاتك شيئا قل أو كثر ؟

نعم ، أنت تجهلين بعض جوانب من حيـــاتى ، ما فى ذلك ريب ... وربما كانت هذه الجوانب التى لا تعلمينها من امرى على صـــغرها هى أعظم جوانب حياتى خطرا ، وأبعدها أثرا . وربمـــا كنت أنت على علم بظواهرها ، ولكنك لا تعرفين من تفاصـــيلها ما يصـــور حقيقتها الكاملة .

أنت تحيـــين معى ، وما أذكر أنك فارقتنى أو فارقتك يوما أو ليلة ...

كانت حياتنا معا موصولة الحلقات ، بيد أنى أؤكد لك على الرغم من ذلك أنك لم تسبرى غور هذه النفس البشرية .. نفسى أنا ابنك الذى هو جزء منك !

دعينى اذن أكشف لك مكنون صدرى ، واطالعك بسر من حياتى دفين .

استمعى الى يا أمى ولا تقاطعينى .

لا تعترضى على شىء مما أنا قائلة ..

الزمى الصمت ... صمت الـوعى والانتباه .

ما أفشيه الساعة لك هائل فاجع ..

أنت فقيرة ، وأنا مثلك فقير .

لم يكن لى من التعليم نصيب ، ولكنى استطعت أن أكتسب غير قليل من الثقافة ، وألم بضروب شتى من المعرفة ، وأتفطن الى ظواهر الحياة حوالى .

لقد استهوتنى أحاديث المتعلمين ، فأنصت لها كل الانصات ، والتقطت الكثير مما يجادلون فيه ، وحفظته عن فهم ودراية .

كان أطيب وقت الى هو الوقت الذى اقضيه عن كثب من زمرة المتعلمين فى المشارب والأندية ، وأنا قابع فى ركنى المنزوى ، غارق فى صمتى المديد .

فهمت مما يخوضون فيه من الحديث امور الدنيا ، وتصاريف الحياة ، وشواغل الناس ، دون أن يحس أولئك المتعلمون أنى لقنت منهم شيئا .

كنت أقضى أطول وقتى لا أنبس الا فى الندرة ، فالكلمة لا تبرح فمى الا عن اضطرار ، وشعارى الدائم هو الصمت والهدوء واجتناب الاختلاط بخلق الله فكان فى ذلك ما دعاهم أن يلقبونى : العبيط !

عبيط ... أو ماكر خبيث ... وحقك يا أمى لا ادرى اى الرجلين أنا ، ولكن جميع الناس ، وانت أولهم ، يطلقون علىّ لقب العبيط ! .

أما أنا فى نظرها « هى » فكنت العبيط الأكبر ، ولذلك وقع اختيارها علىّ .

صه يا أمى ...

قلت لك أصغى الى ، لا تقاطعينى ..

ارهفى سمعك ، لكى تتلقى من ابنك العبيط النبأ الهائل الفاجع الذى يزلزل كيانك .

... بل ساصمت أنا ، مرهفا سمعى ... أقادمون هم علىّ الساعة ؟

كأنى بهمس تترامى أصداؤه الى اذنى ...

كأنى بخفق أقدام تتدانى ...

لا ، لا شىء من ذلك ، أحسب أن الوقت لم يحن ، نور الشمس الوضاح لم يكشف السر بعد .

لقد احتفوا بليلة الزفاف حتى الفجر ، وهم الآن مستسلمون للكرى ...

على أن اتم حديثى معك ، أو بالأحرى اعترافى لك ، قبل أن يقدموا ليصطادونى وانهم لا شك فاعلون .

أميل الى اعتقاد انى عبيط ... نعم ، أنا عبيط ، والا لما استطاعت «هى» ان توقعنى فى حبائلها على هذا النحو المهين .

أنت تعلمين يا أمى انى وسيم الطلعة ، فمنك انتقلت الى هذه الوسامة . وان شبابى لينفجر نشاطا وحيوية ، وانى مهذب الطبع خدوم ، وفوق ذلك أتحلى بفضيلة الصمت ... وهذا ما قربنى اليها وقربها الىّ ... هذا ما اغراها بأن تختارنى دون سواى .

انهـا ربة نعمتى ، وربة نعمتك انت ايضا يا امى ... لقد منحتنا هـذا « الحاصل » الذى نبيت فيه ، ونأوى اليه ، وسكنت هى فى شـقتها الفاخرة فوقه ، وكذلك منحتنا الكساء والغذاء ، واسبغت علينا عطايا وهبات ، وان كنا نحن ايضا لم نبخل عليها وعلى زوجهـا بكل ما نستطيع من خدمات .

كنت أتهيبها وأتهيب زوجها معها ، واعدهما من صنف آخر ارقى شأنا من الصنف الذى ننتسب اليـه ، وكان الزوج ذا حزم وارادة ، اذا مثلت أمامه احسست الضياع ...

لم يكن أصلب منى عودا ولا اشـد بنية ، فلو قدر له أن ينازلنى فى مصاولة حرة لما ثبت ازائى دقائق معدودات ، ولـكن ذلك لم يكن يعصـمنى من أن أرهبه غاية الرهبـة ، وأن ارتجف لمرآه ...

فيم كل هذا الذى استشعره نحوه ؟ الأنى عبيط ؟ .

سمعت يوما فى المشرب رجلا يصفنى بقوله : صدقونى ان هذا الشاب ليس بالعبيط ، بل هو هادىء خجول طيب الى ابعد حدود الطيبة !

لست فى الحق طيب القلب الى هذا المـدى ، فان بى نزعة الى الشر ، نزعة ممتدة الى الأعماق السحيقة من نفسى ، وبين جنبى ضغينة مطوية ، ضغينة على ذلك الزوج ، برغم ما القاه من عطفـه واشفاقه ، فانا أكرهه ... أمقته ... ولما وافته منيته لم تذرف عينى عليه دمعـة ، بل شعرت بفرحة باطنـة ، واستبان لى انى كنت أتمنى موته ... لماذا ؟ ... لا أدرى !

وكانت « هى » مدة حـدادها على زوجها تزداد فى لبوسها الأسود حسنا ووسامة ، وكلما حاولت أن أرفع اليها بصرى أتملى مفاتنهـا ارتدت نظراتى حسيرة متعثرة .

ومضت الأيام سهلة رخية ...

وانقضت مدة الحداد ، وعاد الاشراق الى محياها ، ورنت ضـحكاتها عذبة ناعمة ، وأحسست بها ... بها « هى » تطيل وقفاتها معى ، وتفيض فى حديثها الى ، وهى تتوسمنى ..

واشـتد اهتمامهـا بى ، فـكانت تستبقينى فى الشقة وقتا ليس بالقصير ، لأؤدى لها بعض الخدمات الخاصة ، وكانت تقول لى انها ضاقت ذرعا بخادمتها التى تكرر منها الاهمال والعناد .

واجتهـدت فى خدمتها ، باذلا كل وسعى ، وأنا أتلقى رضاها عنى بغبطة وارتياح .

وعلى مر الأيام وجـدتنى اقوم لها باكثر ما كانت خادمتها تقوم به : أطهو وأغسل وأكوى ، وأؤدى غير ذلك من أعمال منزلية شتى .

كنت نشـيطا احس الحيـاة بكل ما تحويه من بهجة واسعاد .

ومثلت هى أمامى مرة تتوسمنى ، ثم قالت متلطفة : أنت شاب مجد فى عملك ... ووسيم أيضا !

وابتسمت لى ابتسامة متألقة ، وتابعت حديثها تقول : صحيح عبيط . وماله ؟ ... أحسن عبيط ! .

وفى لحظة داعبتنى بقرصة فى خدى ، فكانت أسعد لحظة من عمرى ...

وفى غد ألفيتها تهدى الى كسوة من ملابس زوجها الراحل ، وحقا كانت حلة فاخرة ، فلما ارتديتها وبدوت بها أمامها ، صاحت متهللة الوجه : يا لها من أناقة . لقد زدت فى نظرى وسامة وخفة ! .

وبدأت تستدعينى الى حجرتها الخاصة ، لأساعدها وهى تبدل ملابسها ، وطفقت تريني ما خفى من مفاتنها ، وهى تشير باصبعها نحوى ، وترنو الى ، وتردد على سمعى فى صوت منغم : لا ترفع عينك ... الزم الأدب يا ولد !

فكنت أهمهم ، وأنا أختلس اليها النظر على الرغم منى ، وكل جارحة من جوارحى تلتهب .

ويوما ، وهى فى مثل هذه الحال معى ، وأنا واقف منها كالصنم ، ولسانى منعقد ، وجدتنى أنقض عليها ، دون وعى ...

لكأنما كنت فى حلم ، أعتصر بين يدى ليمونة حلوة ، وارتشف رحيقها ارتشاف الظامىء للماء العذب ، بل

انى على الأصح اكلتها أكلا ، واحسست بانى لم ابق منها شيئا لراغب فيهـــا من بعد !

وتواصلت الأيام ، وانا اســتمرىء ذلك المتاع العظيم ...

وكثيرا ما كانت تقول لى فى حنان زائـــد : أنت طيب القلب ... طيب القلب جدا .

ولكن هذا الطيب القلب يا أمى جرؤ على أن يذبح دجاجة سمينة رائعة ، وجرؤ كذلك على ان يذبح معها ديكا له خطره فى عالم الديكة !

صه يا أمى ...

يخيل الى أن لغطا يعلو فى الخارج .

أنصتى معى فى سكون تام .

عجبا ... انهـا أصوات الجنادب التى تساكننا فى هـــذا « الحاصل » العتيق .

اطمئنى يا أمى ولا تخافى .

اتراك خفت فعلا عندما عدت اليك فى مطلع الفجر ، بعـد أن قمت بأداء مهمتى ؟

هل رايت السكين الكبيرة ؟ انهـا هنالك تحت اللحاف راقدة ، ســكين المطبخ العظيمة ، لقد عنيت أنا بشحذها أياما حتى غدت أرهف من حد السيف فعلت ذلك حتى لا يكون معهـــا ألم ، ولا تشويه للجسد ..

وتم الأمر فى لحظات قصار ... فى سهولة ويسر ... وكثيرا ما يغلو المرء فى حساب عظائم الأمور !

شد ما ابغضت هذا الزوج الجديد ابغضـــته بغضـــا لا تستطيعين أن تتصوريه ، ولم أكن قد رايته الا خطفا فى تلك الليـلة البارحـــة ... ليلة الزفاف !

اذا استطعت يا أمى أن تحشـدى حقد الحاقدين فى هذا الكون ، فاعلمى انه اذا وزن بالحقد الذى حملته له فانه ليتضاءل ولا يغدو شيئا !

لم يكن أمامى غير هـــذه السبيل ، فسلكتها وأرحت نفسى .

لماذا اخترته يا حبيبتى زوجا ثانيا لك ؟ ألم أكن أنا اكثـر من زوج ... كنت طوع يمينك مثل كلب وفى ، ولكن كان عليك أن تعرفى أن هذا الكلب عقور له انياب كانياب الذئاب !

لماذا نبذتنى ، واتخذته عوضا عنى ؟ الأنى عبيط وهو الذكى الألمعى ؟ الأنى من ســـكان « الحواصل » وهو من سكان الدور ؟

لقد عشت معك وقتا نتساقى الحب متعة موصولة ، وكنت راضية بى كل الرضا ، فما الذى غير قلبك على ، وانا الحريص على اسعادك ، بل انى لراض أن أبذل حياتى فداء لحياتك ؟

القيتك تقصيننى عنك بغتة ، لافسح المكان لغريمى ، وانت تغمرينى بالمنح والهدايا ، حتى تهونى على نفسى قبول

الأمر الواقع المرير ، وأخيرا أصدرت أمرك الى أن الزم مكانى فى « الحاصل » مع أمى ، كعهدى من قبل ...

صه يا أمى ، ودعينى أنصت .

انهم قادمون ...

ذلك خفق أقـــدامهم على الأرض الصلبة ، تتجه نحو « الحاصل » ...

ها هم أولاء يسارعون الى ...

أثمة سلاسل معهم تصلصل ؟

أحس عن يقين أنهم اللحظة مقبلون .

لا يكذب حدسى هذه المرة .

فلياتوا ، كل شىء معد ، كل شىء فى متناول أيديهم ، الســـكين المخضـبة بالدم راقدة تحت اللحـــاف ، وأنت يا أمى على وسادتك غائصة فى ذهول وخبال ...

الضوضاء تعلو ... أكبر الظن أن الحى كله قد اجتمع ليشهد العبيط وهو يستقبل ضيوفه العظام ...

ســـانهض يا أمى للقـــائهم ... لا يصدر عنك صوت ... ابقى غائصة فى ذهولك وخبـــالك ... وداعا ... وداعا ليس بعده لقاء !